التوسع الفينيقي بالمغرب القديم
و تأسيس قرطاجة

كانت بلاد المغرب لم تدخل بعد في التاريخ القديم، منشغلة بمعايشها وحياتها، التي كانت أشبه ما تكون بالفطرية، كما لم تدخل حيز الحضارة القديمة إلا بعد حين من الزمن؛ فكان الدخول الفينيقي والظهور القرطاجي حدثا تاريخيا مهما في سيرورة الزمن المغربي القديم.

1ـ العصر الفينيقي في المتوسط وعهد المحطات:

الفينيقيون جيل من الأمم الشامية القديمة، اختلف في نيبتهم، كانوا يسمون أنفسهم "السيدونيون" نسبة لمدينة سيدون (صيدا)، وسموا أنفسهم أيضا بالكنعانيين، أما جيرانهم فسموهم "كواقي (Kuaggi) أي كنعاني، وسماهم الإغريق "الفينيقس" (Phoinix) وهي الصباغة الأرجوانية التي اشتهروا بصنعها والتجارة بها حوالي القرن 12 ق.م.، والمستخلصة من محار "الميوركس" فيما قيل؛ فاشتهروا لذلك في الأدبيات القديمة بالفينيقيين وسميت بلادهم فينيقيا.

وكانت فينيقيا تجمعا لعدد من المدن الساحلية – حوالي خمسة وعشرون مدينة – ذات الطابع التجاري البحري، نذكر منها: أرواد، جُبيل، صيدا، وصور. وقد أسسوا بها حضارة ذات صناعة قوية ، واشتهروا بصناعة السفن وفن الإبحار،، جاءهم ذلك من إرادتهم تسويق منتجاتهم في المناطق المجاورة وحتى البعيدة.

لقد دفعتهم تجارتهم للتجوال في الحوض الشرقي للمتوسط، حيث أسسوا المحطات التجارية في العديد من جزر البحر كقبرص وكريت والجزر الإيجية، وغيرها؛ لكن مضايقة ومنافسة الإغريق لهم بعد الغزو الدوري اضطرهم للبحث عن مناطق جديدة للتجارة، فتوجهوا للحوض الغربي للمتوسط، فكانوا أول الأمم الشرقية توغلا فيه، حيث أسسوا على سواحله الجنوبية وجزره الكثيرة عددا من المحطات التجارية، استعانوا بها على نشر تجارتهم. وكان من أقدم تلك المحطات: لكسوس (Lexus) في اقصى الغرب المغربي قرب العرائش (حوالي 1110 ق.م.)؛ ثم محطة قادس بابيريا (حوالي 1101ق.م.)؛ وأوزة؛ ثم أوتيكة (حوالي 1100 ق.م.)؛ وحضرموت (Hadrumete)، ولبتس. وكانت كلها فيما يدو محطات لمدينة صور عاصمة الفينيقيين، تطورت مع الزمن وتحول بعضها إلى مستعمرات صغيرة.

كما أسسوا في جزر المتوسط محطات أخرى، منها: موتيا (Motya)؛ بانورموس (Panormos) في صقلية؛ نورا (nora) في سردنيا. وكانت أهم هذه المحطات محطة قادس أو قادر على لسانهم. ويؤكد ستيفان قصال أنهم لم يؤسسوا محطات في الناحية الإيطالية والغالية، وإن كانوا قد اتصلوا مع أهلها للتجارة، وإن خالفه غيره في هذا.

أسس الفينيقيون بهذه المحطة حركة تجارية قوية مع الأهالي المحليين في الحوض الغربي للمتوسط، خاصة بلاد المغرب؛ فكانوا يقايضون الأقمشة والزجاج والنفط والحلي ببضائع كالفضة والذهب والعاج وبيض النعام والصوف. وكانت تتم عملية المقايضة كما يذكر هيرودوت بطريقة الدخان. وستتحول هذه المحطات الصغيرة مع الوقت إلى تجمعات كبيرة (مستعمرات)، ستصبح نواة لاهم المدن المغربية، ومركزا للتبادل التجاري والتأثير الحضاري.

أ ـ أسباب الحركة التوسعية البحرية الفينيقية:

فما هي الأسباب من وراء هذه الحركة "التوسعية" البحرية الفريدة في التاريخ البشري؟
الحقيقة أن لهذه الحركة أسباب تعددت أوصافها:

فمنها **أسباب سياسة** كثيرة؛ كالمضايقة والمنافسة الإغريقية على المجال الحيوي بشمال الحوض الشرقي للمتوسط، والتي تضاعفت بعد غزو شعوب البحر لها بداية من القرن 12 ق.م. ثم قوة الدول المجاورة لها ذات الأطماع التنافسية عليها، كالحيثيين في سوريا، والفراعنة في مصر، ثم الآشوريين في العراق، والآراميين في دمشق، والعبرانيين في فلسطين؛ كلهم كان له نصيب في الطرق التجارية الداخلية، بسبب القوة العسكرية التي تمتعوا بها، في مقابل ضعف المدن الفينيقية وسلميتها.

ومنها **أسباب اقتصادية**؛ فقد ساعد الفينيقيون على احتراف التجارة مواقع مدنهم الساحلية، ذات الموانئ الطبيعية، والأحواض الصالحة لبناء السفن، مع توفر الأشجار بغابات لبنان الشهيرة. فضلا على تحكم الساحل الفينيقي في الطريق الدولي الواصل للتجارة العالمية أنا ذاك، والواصل بين مصر وآسيا الصغرى، وبرا ببلاد الرافدين. فضلا على ازدهار صناعتهم الخشبية، وثياب الأرجوان، الخمور والزيوت، والحلي والزجاج الشفاف، التي كانت تحتاج إلى التسويق الخارجي. وحاجتهم للمواد الأولية خاصة المعدنية، التي ضربوا لها عرض البحر إلى ترسوس الإيبيرية (الاسبانية)، جلبا لخامات الفضة والنحاس ولغيرها من العاج وجلود الحيوان وتبر الذهب والعبيد. بل توغلوا في ذلك حتى وصلوا جزر كستريديس (Casseteriades) جنوب بريطانيا. كما لم يكن دافع الربح التجاري وحب الثروة ببعيد عن حث دهاقنة الفينيقيين الكبار للإبحار في سبيل ذلك، كما يقول سالستيوس الروماني.

أما **الأسباب الاجتماعية**؛ فطابع العمران الاجتماعي الفينيقي تميز في أكثر الأوقات بانعدام الوحدة السياسية القوية؛ إذ سيطر عليه نظام دولة المدينة، مع ما فيه من عيوب التنافس بين مكوناته، وما خلفه من ضعفها وطمع جيرانها فيها. فقد كانت المدن الشمالية في الغالب داخلة في حلف الحيثيين ثم الآشوريين، تستعين بهم على المدن الجنوبية الداخلة في حلف المصريين؛ وخلفت النزاعات السياسية الداخلية هجرات اجتماعية، من فينيقيا إلى البلاد البعيدة، كما يذكر سالستيوس في خبر تأسيس مدينة "لبتس مانيا" (الخمس الليبية).

كما دفعت صراعات الشعوب المجاورة إلى هجرات فكثافة سكانية في المدن الفينيقية الساحلية، والتي كان التوسع الفينيقي مخففا لها، خاصة إذا علمنا ضيق المنطقة وحواجزا الطبيعية (جبال لبنان).

لقد كانت قرطاجة أهم مظاهر هذا التوسع الفينيقي في المتوسط الغربي، حيث كثرت المحطات الفينيقية به منذ القرن 11 ق.م.، تلك المحطات المستمدة ثقافتها وحضارتها من المدن السورية، وخاصة مدينة صور التي كانت تشكل وحدة شبه مركزية للفينيقيين المنتشرين في المتوسط وبلاد المغرب، لما مثلته من رمز للوحدة السياسية والدينية.

2ـ العصر القرطاجي والإمبراطورية التجارية:

في هذه الأحوال تظهر قرطاجة كنتاج للتوسع التجاري الفينيقي، ولها في نشأتها قصة أسطورية تظهر طبيعة الهجرات البشرية النازلة بلاد المغرب؛ فقد ذكر المؤرخ تيمي (*Timee*) أن الأميرة عليسة (*Elissa*) الصورية اخت الملك بغمليون (*Pygmalion*)، وكان زوجها أحد كبار كهنة معبد ملقرت، فعدى عليه اخوها فقتله طمعا في ماله ومالها، وبحيلة ذكية فرّت الأميرة من أخيها، واتجهت في رحلة طويلة مع بعض وجهاء الفينيقيين، ممن كان يشاركها محنتها وعداوتها للملك، فنزلت بهم في عدد من السفن ناحية تونس، واستأجرت أرضا من إغليد بربر تلك الناحية، واستعانت بحيلة أخرى لتحجديد حدود تلك الأرض (قصة جلد الثور)، فلما أشأت مدينة قرطاجة (*Quart*

Hadasht) أي المدينة الحديثة أراد الملك الليبي هيرباص (*Hiarbas*) الزواج منها فرفضت، فهدد قومها، فأرادوا إرغامها على الزواج منه، فلم تجد للخلاص من ذلك إلا التعلل بالقيام بقربان للآلهة، فأضرمت نارا لذلك قرب بيتها ورمت نفسها فيها، تلك كانت قصة عليسة أو ديدو (*Dido*) كما سماها البربر.

لقد اختلف في تاريخ بناء هذه المدينة، ففي رواية قديمة انه بنتها مدينة صور حوالي 1213 ق.م.، ولعل المدينة الجديدة التي بنتها عليسة كانت على أنقاضها، ويؤرخ لها بـ 814 أو 813 ق.م.، أي بعد بناء مدينة أوتيكة القريبة منها بحوالي 287 سنة، وقبل مدينة روما بحوالي ستون أو سبعون سنة.

نمت قرطاجة ولم تقطع روابطها بمدينة صور، فقد بقيت لمدة قرون تعطي ولاء الطاعة لها، وكانت كل عام تقدم القرابين لمعبد ملقرت بصور، وقد قدر تلك القرابين والهدايا المؤرخ ديودور الصقلي بعشرة بالمائة من عائدات قرطاجة. وأخذت المدينة تزداد قوة واتساعا، بل أخذت بالتدرج تأخذ زمام الريادة من مدينة صور الآخذة في الاضمحلال في عملية انتقال حضاري بطيئة، وباعتبار الطابع التجاري لأهلها، والصبغة البحرية لأمتها، اتجهت نحو هذا النشاط في طريق توسعها الكبير، الذي أخذ دورين : توسع ساحلي ثم توسع داخلي.

أ ـ التوسع القرطاجي الساحلي:

كان هذا التوسع في شكل إقامة محطات تجارية على غرار محطات العهد الفينيقي، ولعلها قامت بإحياء محطات قديمة وانشاء أخرى جديدة، لكن تعوزنا المعلومات حول تلك التي أنشأتها. لقد بدأت هذه الحركة التجارية من القرن 7 ق.م. وانتهت في القرن 5 ق.م.، واتخذت صبغة مناطقية؛ فقد بدأت في التوسع أولا في الناحية السيرتية الليبية وما جاورها، ثم في ناحية المغرب، ثم إلى ما وراء ذلك من المناطق المحيطية والجزرية، انطلاقا من مدينة قرينة (Cyranica) وانتهاء بمدينة طنجة (Tingi).

واستطاعت قرطاجة بهذه المحطات ابعاد الخطر والمنافسة الإغريقية خاصة من الجهة الطرابلسية وجزر سردينيا وكورسكا وجنوب ابيريا والمغرب. وبتحول هذه المحطات إلى مستعمرات أسست قرطاجة حكما سياسيا مركزيا، يتحكم في بقية المدن والمحطات الفينيقية القديمة؛ فكونت شبه إمبراطورية بحرية عظيمة، ربطت مع شعوب غرب المتوسط معاهدات سلم خاصة مع الإتروسك (*Etrusques*) حلفائها بايطاليا، ثم مع روما فيما بعد. لكنها لم ترد أو تقدر على القضاء على المنافسة الإغريقية في كل من شرق صقلية وجنوب إيطاليا وشمال شرقي إبيريا ومارسليا. ويضع هنا قصال فرقا بين المحطات القرطاجية والإغريقية-الرومانية، فالأولى في نظره لم تكن إلا منزل عبور بخلاف الأخرى التي كانت مدنا ذات حضارة وفنون حقيقية! أي أن التأثير الحضاري للمدن القرطاجية شبه معدوم! وفي هذا الكلام مخالفة ومكابرة للآثار ثم للتواريخ التي ذكرت قدر التأثير القرطاجي على البربر في جميع مناحي الحياة.

ب – التوسع القرطاجي الداخلي: في مرحلة متأخرة (ق 5 ق.م.) اتجهت قرطاجة للتوسع في الداخل، فقد أصبحت إمبراطورية بحرية ساحلية، لا زالت تقدم ضريبة إجارة أرضها للبربر، لكن ستتوقف عن ذلك (حوالي 475 او 150 ق.م.)، مما سبب بلا شك حروبا مع البربر. لقد توافق هذا التوسع مع إنشاء الإقليم القرطاجي في الداخل الإفريقي (الناحية التونسية).

كان الدافع لهذا التوغل في البر المغربي عدة أمور: أولها التوسع السكاني الطارئ على قرطاجة، والذي احتاجت معه لأراضي زراعية إضافية، سدا للحاجات الغذائية المتزايدة؛ ثم إن الأرستقراطية الحاكمة آل ماغون وجدت في ذلك وسيلة لتوسيع نشاطها الاقتصادي غير التجاري،

وتحريك الأموال الكثيفة الجامدة من العوائد التجارية؛ وإرادتها إبعاد البربر النازلين على أبوابها المتحينين لضعفها؛ فضلا على إرادتها التخلص من الضريبة المهينة المفروضة عليها؛ ثم هي أرادت أيضا ضم هؤلاء البربر المشتهرين بالفروسية إلى جيشها واستعمالهم في حروبها والدفاع عن أراضيها، خاصة بعد هزائمها مع إغريق صقلية.

كما اتجهت للتوسع في البر الإبيري لنفس الأسباب في الغالب، زيادة على طمعها في خامات ومعادن ذلك الإقليم، وإرادتها تعويض مجالها الحيوي صقلية بعد ضياعه في الحرب البونية. ونشأ إقليمها الإبيري المجتمع في منه خليط من الليبو-فينيقيون كما تذكره المصادر القديمة، مما يدلل على شيء من الاندماج الحضاري الاجتماعي القائم بين العنصرين الفينيقي والبربري لحد الاشتراك في الغزو والتوسع.

ج – نتائج التوسع القرطاجي: ازدادت قرطاجة قوة بهذا التوسع، واتجهت أنظارها لما بعد المتوسط، فحركت حملتين بحريتين استكشافيتين شهيرتين، حملتي هملكون وهانون القرطاجيان. أما حملة الأول فاتجهت نحو الساحل الأوربي الغربي، ووصلت فيما يراه المؤرخون إلى أيرلندة، حيث كانت مهمتها الرئيسة انشاء علاقات تجارية من شعوب تلك النواحي، واغتنام مناجم المعادن بها دون انشاء محطات، كما يرجحه ستيفان قصال. أما حملة هانون الملك، فقد وصلتنا ترجمة إغريقية وضعها الملك في نصب بمعبد قرطاجة، كانت الحملة مكونة من ستين سفينة كبيرة، عليها حوالي ثلاثون نفسا من الرجال والنساء، مهمتهم إنشاء مستعمرات في إفريقيا المحيطية، ما بعد أعمدة هرقل (جبل طارق)، وقيل أنها وصلت إلى سواحل الكامرون حاليا.

لقد كانت هذه الاستكشافات رغم كبرها سلمية الطابع، غرضها تجاري، فخالفت بذلك الحملات النورمانية في العصور الوسطى والأوربية في العصور الحديثة؛ فلم يسفق فيها من الدماء إلا دماء القرابين، بل أسست روابط تجارية وحضارية مع مناطق يراها الجنس الأبيض ربما لأول مرة.

د – التحول الحضاري إلى المغرب:

كانت هذه الحركة القرطاجية معلما للتحول الحضاري من المشرق إلى المغرب؛ ففي بداية القرن الخامس قبل الميلاد كانت قرطاجة القوة البحرية الأولى في غربي المتوسط، تقود بقية المستعمرات الفينيقية المتوسطية الأخرى، إذ أزاحت النفوذ الصوري المشرقي بنفوذها المغربي الفعلي، فدخلت المدن الفينيقية في حلفها وطاعتها على الرغم من أنها كانت من أواخر المدن ظهورا في غربي المتوسط.

فما كان سبب هذا التحول التاريخي في حياة تلك المدينة المتوسطية المغربية؟

لقد عملت عدة **أسباب** في دلك الانقلاب الحضاري الحاصل:

فأولا؛ كانت حاجة هذه المدن والمستعمرات الفينيقية قوية لصد الأطماع الهيلينية (الإغريقية) في المنطقة؛ إذ كان للإغريق منذ القرن الثامن (ق.م.) عددا من المستعمرات في صقلية (سرقوسة، مسينة)، كما في جنوب إيطاليا أيضا. وفي حوالي سنة 640 ق.م. نزلوا الناحية الليبية السيرتية وأسسوا مدينة سيرين (*Cyren*). وأسسوا حوالي 600 ق.م. ماساليا (مرسيليا) جنوب غاليا، وفي إبيريا مدينة ماينا‌سي (*Maenace*) بنواحي ملقة. هذه الحركة التي دفعتها إرادة الهيمنة والأطماع التجارية والهروب من الحروب المتواصلة، باتت تهدد وتنافس المدن الفينيقية في غربي المتوسط.

ثانيا؛ أن هذه المدن الفينيقية كانت مهددة من قبل الأهالي والشعوب المحلية القريبة منها، فقد دمر عدد من المستعمرات الفينيقية في منطقة المحيط المغربية من الأهالي المحليين عرفوا بـ "الفاروزيين" و "النقريط" المنتشرين في جنوب المغرب.

ثالثا؛ تأكيد هذا التحول ضعف المملكة الصورية في الشام، فقط سقطت في النفوذ الآشوري بداية من القرن 9 ق.م.، وهرب ملكها إلى قبرص. ثم حاصرها نبوخد نصر ثلاثة عشر سنة (587-574 ق.م.) إلى استسلامها. ثم سقطت في يد الفرس ودخلت في حربهم ضد الإغريق. إلى أن انتهت كمملكة بنزول الإسكندر على أسوارها سنة 332 ق.م.

رابعا؛ كما عاضد الموقع الجغرافي المميز لقرطاجة هذا التحول، فقد كانت موسطة مستعمرات الغرب الفينيقي، بعيدة عن خواطر المنافسة الإغريقية، يساعدها التيار البحري في اتجاه الشرق، والتيار البحري في اتجاه صقلية.

خامسا؛ فقد حوت قرطاجة سلالة الأشراف الصوريين النازلين مع أميرتهم، خرج منهم قادة شهيرون أمثال "ملشوس" (معزوز) الذي قاد حروب قرطاجة في صقلية وسردنيا، وحاول انقلابا عسكريا في القرن السادس ق.م. وظهرت بعده أسرة ماغون، التي أسست فيما يبدو لعصر الحروب القرطاجية وتوسعاتها، والمستعينة بالمرتزقة في حربها ضد النوميديين والموريين (480-450 ق.م.)، المنهية للضريبة المفروضة عليها.

سادسا؛ أنه كان لقرطاجة مثل صور، مستعمراتها ومحطاتها الخاصة ذات الثقل، كمستعمرة "إبيزوس" في جزيرة إبيزا الابيرية، ثم مرسى ماغون بميورقة، وغيرها من المستعمرات الجزرية والساحلية.

سابعا؛ وكانت قرطاجة – دون غيرها – السباقة في الحروب ضد المدن الإغريقية، فقاتلت المرسيليين في معركة بحرية في القرن السادس ق.م.، وقاتلت مع "الإتروسك" الإغريق في صقلية وسردينيا (حوالي 535 ق.م.).

فكان هذا التراكم مع القرب والتوافق الحضاري والاجتماعي وحتى السياسي طريقا لتحول الريادة الحضارية من صور المشرقية إلى قرطاجة المغربية.

هـ- أولى الحروب القرطاجية:

إن التوسع القرطاجي في المتوسط والتوغل الماغوني في البر المغربي رافقه احتكاك مع القوى الإقليمية والمحلية، خاصة وأن المجال الحيوي لتلك الشعوب قريب ومتداخل، فتطور هذا الاحتكاك إلى حروب مصلحية تجارية أو دفاعية حسب الأحوال والظروف.

لقد كان الحظ الأوفر في حروب قرطجة للإغريق العدو التقليدي الأول لهم، وكان سببه الرئيس التوسع الإغريقي في غربي المتوسط؛ فقد حاربت قرطاجة عدد من الملوك والأمراء الإغريق منهم "بنتتلوس" (*pentathlos*) ثم "دوريوس" (*Dorius*) ثم "غيلون" ملك سرقوسة هازم قرطاجة في معركة "هيمير" (480 ق.م). وأشهر حروبها ضد ملك سرقوسة "أغاتوكليس" (*Agathocles*) (311-307 ق.م) الذي نزل بجيشه تونس، وتحالف معه ملك البربر "أيلماس"، وانتهت الحرب بهزيمته دون القضاء عليه.

أما حروبها ضد البربر فكثيرة دون شك، وقد ذكر عدد منها، وتحولت إلى ثورات بعد ضم قرطاجة لمناطق البربر التونسية، كان أشهرها ثورة القرن الرباع ق.م.، حين تخلى الجنرال القرطاجي هملكون عن جنوده البربر في حربه بصقلية (396 ق.م.)، فثار بربر قرطاجة ومعهم عبيدها، وزحفوا في 200 ألف مقاتل عليها، وفتحوا مدنها، وانتصروا عليها، وحاصروها في عاصمتها، ولولا أن تحالفهم كان هشا، لكثرة قادة الثوار، وقلة انضباطهم، لحل بها ما حل بها في حربها مع الرومان.

وصفوة القول، أن التاريخ الحضاري لمدينة قرطاجة ما هو إلا وريث مغربي للحضارة الفينيقية المشرقية، امتزجت فيه المجتمعات القرطاجية مع غيرها من الشعوب خاصة البربر، فأسست احدى أعظم حضارات البحر المتوسط عبر تاريخه. اهـ.